تاج مصر

من "مينا" إلى فاروق

للأستاذ عباس محمود العقاد

اسم الملك فى مصر القديمة دليل على عراقة النظام الملكى فيها ، لأنه دليل الرسوخ والتوطد والعمران المستفيض على حين يعرف الملك فى البلدان الأخرى بأسماء قريبة من البداوة أو من حالة البداية الفطرية .

فالملك فى اللغات اللاتينية (Rex) مأخوذ من كلمة الراجا الهندية وهي فى الأصل بمعنى الربان .

والملك فى اللغات السكسونية (King) مأخوذ من كلمة جناكا (Jan aka) الهندية وهى بمعنى الوالد ، ولعلها كما يرى بعض الباحثين فى اللغات القديمة قريبة من كلمة الخان وما إليها .

والملك فى العربية وأخواتها بمعنى الاستيلاء ، والامارة بمعنى الأمر ، وكلاهما يتحقق لأصغر الحاكمين ولو كانوا من رؤساء العشائر ، لأن المرجع فيهما إلى الرآسة حيثما كان رئيس ومرؤسون .

أما « بارو » أو فرعون كما نعرفها الآن فمعناها « الباب الكبير » أو « الباب العالى » وهو الاسم الذي كان المصريون الأقدمون يعرفون به ملك البلاد ، وتسمية الملك به دليل على « تطور » الحكم عندهم من حالة الأبوة أو الزعامة البدائية أو الرآسة المستمدة من أواصر القرابة إلى حالة السياسة وتدبير العمران وقيام الدواوين ومراسم السلطان .

كذلك كان المصريون يعرفون التيجان ومعانيها السياسية إذ كان غيرهم لا يتجاوزون عهد العصابة أو عهد الاكليل من النسيج والزهر ، ثم من المعادن والجواهر ، فكان لملك الوجه البحري تاجه وشعاره ، وكان لملك الوجه القبلي تاجه وشعاره ، ثم اتحد الوجهان فاتحد الشعاران ؛ وظل الملوك حينا يلبسون هذا أو يلبسون ذاك للدلالة على الحقوق السياسية التى تناط بكل تاج وكل شعار .

وعراقة النظام الملكي معقولة طبيعية فى بلاد كالبلاد المصرية تحتاج إلى نظام واحد فى الرأى ونظام واحد فى الحكومة ، ويد واحدة تشرف على سقيها وتدبير معيشتها ؛ ويساعد على استقرار « النظام » فيها أن أمورها كلها مستقرة تجرى على مثال واحد قليل التغيير والتبديل .

قال الأستاذ ألفرد فيدمان الألمانى فى كتابه (ديانة قدماء المصريين) : « إن الهيمنة على جداول الأرض كانت بطبيعتها أقرب إلى التركيز والتوحيد من سائر المرافق الأخرى . إذ لا يتأتى تنظيم الرى فى مصر على نحو مضمون مكفول بغير هيمنة واحدة تمنع الأفراد أن يجوروا على المصلحة القومية فى سبيل المنافع الفردية »

وتناول الأستاذ اليوت سميث هذا الرأى فشرحه وفصله فى كتابه « التاريخ الانسانى » وأيد فيه ماسبقه إليه العالم الألمانى من تعليل عبادة الملوك فى مصر القديمة ، إذ كان الملك عندهم لزمام النيل ومقادير الماء مالكا فى ظنهم لمصادر الحياة ، خليقاً أن يحاط بمظاهر من التعظيم ومناسك من التقديس لا يحاط بها الانسان ، ولا تكون لغير الأرباب .

ويزكي هذا الرأي أن « مينا » رأس الملوك الذين وحدوا البلاد وجمعوا بين حكم الوجهين إنما كان فى معظم أعماله مهندساً يسوس الماء ويدرى من ثم كيف يسوس البلاد ، وإليه ينسب المؤرخون الأولون تحويل مجرى النيل وإقامة السدود فى أقاليم منف والفيوم .

* * *

ثم جاء عهد الحضارة العربية وهى الحضارة الثانية التي بقي لها بعد الحضارة الفرعونية أخلد الآثار فى تكوين الشعائر وتقرير نظام الحكومة بين المصريين .

والفرق بين مظاهر الملك فيها ومظاهر الملك فى الحضارة الفرعونية هو الفرق بين حاكم يقول : إنه « عبد الله » وحاكم يقول ويقال له : إنه هو الآله وسيد الخلق والأمر وباعث الخير من الأرض والسماء .

فليس للملك العربى « تاج » ولا يحب الملوك العرب أن يتشبهوا بالأعاجم فى هذه المراسم . مدح عبد الله بن قيس الخليفة

عبد الملك بن مروان بقصيدة من جيد شعره يقول فيها .

إن الأغر الذى أبوه أبو العا ... صى عليه الوقار والحجب
خليفـــة الله فوق منبره ... جفت بذاك الأقلام والكتب
يعتدل التاج فوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك : يا ابن قيس ! تمدحنى بالتاج كأنى من العجم وتقول فى مصعب (ابن الزبير) :

إنما مصعب شهاب من الله ... تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه ... جبروت وليس فيه رياء

أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً . . . هذا وعبد الملك بن مروان كان من ملوك العرب الذين أكثروا من اقتباس الأزياء والشارات الفارسية ، إلا مراسم التيجان التى بغضتها إليه النعرة العربية كما بغضتها إليه موجدته على ابن الزبير ومن مدحوه وجنحوا إليه !

وأيا كان سر الإنكار فى نفس عبد الملك فقد ظل الملوك المسلمون يؤثرون العمامة على التاج ويتخذون آثار النبى عليه السلام ـ ومنها البردة والخاتم ـ شعاراً للخلافة أعز عندهم وعند الرعية من كل شعار .

ثم جاء خلفاء الترك فاختاروا العمامة على الزين والترصيع ، حتى لبسوا الطربوش وميزوه على سائر الطرابيش بحلية من حلى التجميل ، كراهة منهم أن يتخذوا التاج ويتشبهوا بالملوك الأوربيين

أما ملوك مصر فقد لبثوا يتخذون الآثار النبوية شعاراً للخلافة حتى زالت عنهم هذه الآثار فعوضوها بما يشبهها ، ثم جروا على سنة الولاة العثمانيين حين دخلت مصر فى حوزة الدولة العثمانية .

* * *

ثم قامت الأسرة العلوية على أساس الانتخاب والتولية فى وقت واحد : فقد أساء الوالى العثمانى الحكم فاجتمع العلماء والنقباء بدار المحكمة واستقر رأيهم على اختيار محمد على الكبير والياً عليهم وإبلاغه ذلك والكتابة إلى الآستانة فى هذا المعنى . وانتقلوا إلى دار محمد على باشا هاتفين : إننا لا نريد هذا الباشا ـ يعنون خورشيد باشا ـ والياً علينا . وقال السيد عمر مكرم : « إننا خلعناه من الولاية » . . . فقال محمد على باشا : ومن تريدونه والياً عليكم ؟ فقالوا بصوت واحد : إننا لا نرضى إلا بك لما نتوسم فيك من العدالة . قال بعد تردد : إنني لا أستحق هذا المنصب وقد يكون فى التعيين مساس بحق السلطان . فعاد العلماء والنقباء يقولون : إن العبرة برضى أهل البلاد وقد أجمعنا على اختيارك .

فقبل محمد على وألبسه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى الكرك والقفطان وهما خلعة الولاية . ولم يمض على ذلك شهران حتى جاء الفرمان من قبل السلطان باقراره فى منصبه وتعزيز ما اختاره الشعب لنفسه ، فكانت هذه هي بيعة الشعب المصرى لمحمد على الكبير ولأسرته من بعده

* * *

وكانت النهضة المصرية وشاء الله لمصر أن تكون ولاية مليكها المحبوب « فاروق الأول » فتحاً جديداً فى تاريخها لا مثيل له فى جميع هاتيك العصور ، وقدوة للاحقين جمعت كل حسن سائغ من الماضى وتنزهت عن كل ما يأباه المليك ويأباه رعاياه :

إستقلال الفراعنة بغير شوائب الوثنية ، وملك العرب بغير رعاية أجنبية ، واختيار الشعب بغير الولاية العثمانية . وقد كانت الدولة البريطانية تزعم لنفسها المزاعم فى إبان الحرب العظمى ، فبطلت هذه المزاعم وقام الملك الفاروق بالأمر بيننا أول ملك خلص لمصر عرشه وخلص له حبها واختيارها . فلا نظير لهذا الملك فى عهد الفراعنة ولا فى عهد العرب ولا فى دولة العثمانيين ولا فى دولة الانجليز . وهنيئاً لمصر هذه البداية ، وهنيئاً للفاروق هذه المزية ، وهنيئاً للمستقبل ما يرجى له من طوالع هذا الفأل الحسن وهذا البشير السعيد

وإن من الخير لمصر أن يكون تاجها هو التاج الذى اختاره الله للمليك الفاروق الفارق بين جيلين وعصرين :

تاج محسوس بالقلوب مثاله هو شخص المليك المحبوب ، ورمز تراه الأفكار قبل أن تراه الأبصار ، وطلعة كما قال عبد الله ابن قيس :

. . . شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه ... جبروت وليس فيه رياء

عباس محمود العقاد